الدراسة العاشرة

السلوك التفاعلى للكفيف
وعلاقته بالقدرة على الإنتاج

توطئـــة

نشاهد فى حياتنا اليومية مجموعة الأفراد التى تتحرك حولنا ونستمع إليهم ، ونلحظ ما يعتريهم من تغيرات تتعلق بالوجه وبالكلمات ، وما يصاحبها من إيماءات ، وما يعتريهم من حالات نفسية تلعب فيها وظائف الجسم دورا مهما ؛ فنرى على سبيل المثال بعض الوجوه متوردا وبعضها ذابلا ، وهناك من يلهث لينجز عملا فتندفع دقات قلبه وكأنها تسابق خطواته ، بينما نرى من أصابه الكسل والخمول فجعله مستريحا بهذا البطء ، مستسلما لتلك البلادة الانفعالية . ويرى Berne[1] أنا نستطيع ملاحظة تلك التغيرات المفاجئة فى كل فرد ، فالولد الصغير الذى تنهمر دموعه عندما لا يستطيع ان يجعل لعبته تتحرك ، والفتاة المراهقة التى يفيض وجهها الحزين بالإثارة عندما يدق جرس التليفون بعد طول انتظار ، والرجل الذى يعترى وجهه الشحوب وترتعد أوصاله عندما يعرف أنه لم يحقق نجاحا فى عمله ، والأب الذى تتصلب ملامح وجهه متحجرة غاضبة عندما يختلف معه ابنه ولا يسمع كلامه .

ويعيش الإنسان فى ظل هذه المتغيرات المهمة ، والظروف المتعددة ليقدم إسهاماته ويترجم انفعالاته إلى سلوك ، قد يعجب الجماعة أو قد لا يحظى بالوئام التام بينه وبين الأفراد الذين يتعامل معهم .. ولعل هذه السلسلة المتتابعة من التفاعلات هى التى تجعلنا نجد البعض يحاولون تجميع كل ما لديهم من عوامل

(1) Berne E. (Transactional Analysis in psychotherapy), New York Grove Press, 1961, p. 24.

وقدرات تمكنهم من الاستمرار السليم ، ونعنى به ذلك الاستمرار الذى يؤكد ذواتهم ويعمل على إظهار مهاراتهم .

وبطبيعة الحال .. يصطدم الأفراد بعضهم ببعض لاختلاف الاتجاهات والمشارب والأذواق والقدرات ؛ فهناك الذى يرى أن ما يمتلكه من حيثيات وحوائج ومعطيات أفضل كثيرا مما يملكه الآخر ، بينما نرى ذلك الذى يتعامل مع الآخرين متواضعا ، دون أن يعلن عن ممتلكاته تاركا القدرة تتكلم ، والذخائر التى يمتلكها تتحدث عن نفسها دون تمجيد أو صلف وتيه .

ويتطلع الأفراد إلى التغيير حيث يبعث هذا التغيير روح المثابرة والعمل فى نفوسهم ، فينقلها من حالة السكون إلى حالة الحركة والنشاط ، وهذا الأمر يعد من الأمور المهمة ، التى تجعلنا نهتم بأمر توظيف الطاقة لدى الإنسان .. ونقصد بهذا التوظيف الترجمة السلوكية التطبيقية لقدرات الإنسان بحيث يشعر الإنسان بمعنى لحياته ومعنى لهذه القدرات ، فيحصر على توظيفها وإظهارها والإعلان عنها فى المواقف التى تستأهلها وتتطلبها .

وإذا كان السؤال الذى يحتار فيه المرء يتمثل فى هذه الصيغة : M هل أستطيع أن أتغير ؟ وهل من الممكن أن أضيف إلى شخصيتى أبعادا جديدة ؟ فإن الإجابة عن هذا السؤال وما تفرع عنه من تساؤلات أخرى : إننا نستطيع أن نتغير إذا ما حاولنا أن نتفاعل مع الجماعة تفاعلا ، يمكننا من التعامل معهم وفق أصول وقدرات ومهارات ؛ لأن القدرة على التغيير من أهم القدرات التى يتمتع بها الإنسان الفرد ؛ لأنها تمكنه من الخروج إلى عوالم متعددة ، بعد أن يكون قد انطلق انطلاقته الوثابة من عالم العزلة إلى عالم النشاط والحركة .. ولو أن هناك من يتهكم على قدرة الإنسان على أن يغير نفسه ، فيرى أن هناك كثيرا من الرجال – على حد تعبيره – من يزهو بأنه يريد التغيير وينشد الأفضل ، وقلما نجد درجة ملحوظة من هذا التحسن أو ذلك التغير –

ولكن هذا التعبير الذى ورد على لسان M إمرسن L[◘] لا يعدو أن يكون تنبيها لمدى الحرص على أن يكون التغيير ملائما ، ويسعى إلى الأفضل ويحقق الإنجاز الأوفق ، على اعتبار أن هناك من يتشدق برغبته الملحة فى أن يسهم فى تغيير بعض الأمور التى لا يرضى عنها ويقرها الآخرون ، إلا أننا نجده قلما يتابع جهده ويحظى بدوافعه السليمة وحرصه الدائم على أن يقوم بمهمة التغيير .

وقد يلجأ الإنسان الفرد إلى مجموعة من التصرفات ، التى قد تمكنه من أن يشغل وقته فيما يحقق له التغيير وبما يعود عليه بالنفع الوفير - ولعل هذا الذى يتصرفه الإنسان يكون دائما من صنع إرادته التى أرادت له أن يكون بما هو عليه من تغيير .

ويؤكد M بيرن Berne L أن الإنسان يصطنع ألعابا ، من شأنها أن تضيف إليه أو يمارس عملا يؤكد ذاته من خلاله بما يحرزه من نتاج وابتكارات ، ومن هنا يكون الوقت ملمحا أساسيا من ملامح تحليل العمل الذى يقوم به الفرد فهو يتحرك فى زمن ، ومؤدى هذه الحركة الموقوتة ما يفرضه هذا الوقت المتاح من إنجاز يعطى مؤشرات عن قدرات الفرد واستعداداته L[1] .

ولعل ذلك ما جعلنا نهتم بالسلوك التفاعلى للكفيف ، ذلك الذى نعنى به درجة تفاعله الاجتماعى مع الآخرين داخل إطار العمل ، وكيف يستطيع أن يؤكد ذاته من خلال إعادة تأهيله ، وإبراز قدراته فى عمل من الأعمال التى تمكنه من

(◘) يرى إمرسن Emerson فى عبارته الشهيرة :

(All men plame themselves on the improvement of society, and no man improves).

ارجع إلى :

Thomas A. Harris, M. D. (I'm OK-YOU'RE OK, Avon prnting, U.S.A. 1973, p. 48.

(1) Berne E. (Games people play), New York Grove Press, 1964, p. 48.

الأداء السليم والمواظبة الحقة .. وبطبيعة الحال ، فإن مثل هذه الغاية تحتاج إلى توظيف طاقاته توظيفا سليما ، يسمح لها بأن ترسى الأسس الجديدة التى ينبغى أن تنتشر بين الجماعة فتؤكد حقيقة مهمة M أن الكفيف فى مقدوره أن يعمل وينتج ويبتكر إذا ما أعطيت له الفرص المناسبة ، وتعرض إلى خبرات تأهيلية سليمة ، تمكنه من الأداء السليم والتفاعل المثمر L .

وجدير بالذكر أن الاهتمام بالمشكلات الاجتماعية والنفسية ، التى يواجهها المعوقون ومن بينهم المكفوفون إنما تهدف إلى وضع الأسس والقواعد المنهجية ، التى من شأنها أن ترتقى بمستواهم المعنوى والمادى ؛ خاصة وأن هذه الفئة قد عاشت آلافا من السنين تعانى من الإجحاف المجتمعى اعتمادا على هذه النظرة القاصرة ، التى كانت تجعل النور والبصر شيئا واحدا ، أو بطريقة عكسية تجعل العمى والظلام شيئا واحدا .

وبطبيعة الحال .. فإن هذه النظرة زائفة وضارة بهذه الفئة ، بل وتمثل حاجزا يحول دون تقبلهم فى المجتمع على اعتبار M أن النور فى فكر البشرية البدائية والمتحضرة على السواء ، يرتبط بمفاهيم الحق والخير والجمال ويعبر عن المعرفة والحب والأمل ، بينما أصبح الظلام انتفاء النور ورمزا للجهل والخطأ ... بل لقد كان ينظر دائما لوقت الظلام ووقت الليل على أنهما الوقت الملائم للتآمر والحقد والجريمةL[1] .

والملاحظ على هذا التصور أنه قد يحرم فى بعض المجتمعات الكفيف من فرص العمل التى تجعله منتجا ، والتى تحوله من عضو سلبى إلى عضو فعال من خلال

(١) ارجع إلى رعاية المكفوفين نفسيا واجتماعيا ومهنيا - تأليف توماس . ج. كارول ، ترجمة وتقديم الأستاذ الدكتور صلاح مخيمر - عالم الكتب - ١٩٦٩ -ص ص ٤٧ - ٤٩ .

ما يبدعه ويحرزه من إنجازات تجعله ينطلق فى شتى مجالات العمل ، بعد تعرف ميوله وقدراته ، وفى إطار هذا المفهوم الشامل لتأهيل الكفيف ، ستتحول النظرة السالبة إلى نظرة موجبة ، فهو له حق الحياة ، ولابد وأن يحظى بكل الإمكانات والفرص التى تجعله يعمل ويجد ويجتهد وينتج ، فالكفيف لم يعد هو ذلك الذى يقف كسولا متراخيا أمام الجمعيات الخيرية ، التى قد لا تقدم له إلا الكفاف على حساب الكرامة وقيمة الذات ... بل أصبح بفضل العمل والإنتاج ذلك الإنسان الذى يتفاعل مع المجتمع ، ويقدم له من خلال نتاجه ومبتكراته ما يجعله يتبوأ مركزا مرموقا فى دائرة الضوء .

والدراسة الحالية تحاول أن توضح كيف يمكن للكفيف أن يقدم إسهاماته فى عملية التنمية ، من خلال تفاعله مع إطار العمل .. ذلك الإطار الذى يتطلب تجهيزات تأهيلية معينة ، وما موقف الكفيف من حركة الجماعة ، وما يصاحبها من أحكام تقويمية قد تتدخل بدرجة أو بأخرى فى حركته ونشاطه ، فإما أن تدفعه إلى العمل والإنتاج أو تحول بينه وبين المثابرة الجادة - ولعلنا نستطيع أن نلقى بعض الضوء ، من خلال دراستنا التجريبية فى مواقع العمل والإنتاج للكفيف والكفيفة ؛ خاصة وأن البرامج الجادة فى إعادة التأهيل تدور محاورها على أسس من التفاعل الاجتماعى السليم بين الكفيف (الكفيفة) وزملاء العمل ؛ الأمر الذى جعلنا نهتم بهذا الأمر ، ونقدم هذه الدراسة التجريبية ؛ ابتغاء مرضاة الله وسعيا وراء تقدم ملحوظ للكفيف (الكفيفية) فى عملية الإنتاج والتنمية .